

ادب عربي، سال ٩، شماره ١
بهار و تابستان ١٣٩٦

دراسة المعاني الضمنية لانسجام الصوائت في سورة آل عمران

حسن ساقى آلنى*

طالب مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائيّ

سيد خليل باستان

أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائيّ

مجيد صالح بك

أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائيّ

(من ص ١٩١ الى ٢٠٩)

تاريخ الاستلام: ١٣٩٤/١١/١، تاريخ القبول: ١٣٩٦/٦/٢٩

الملخص

لا شك أن للتعبير القرآني أشكالاً وأسراراً فنية تدلّ على أن هذا القرآن كلامٌ أدبيّ مقصود وتكسب نصّه جمالاً وروعةً ودواماً واستقامة. لعلّ من أبرز هذه السمات، ظاهرة الانسجام وأثرها في أداء المعنى القرآنيّ متكاملًا من جميع الوجوه، فضلاً عن منطقيّة نحوها وصرفيها وقالبية ألفاظها وسعة مفرداتها ودقّة تعبيراتها عن المعاني المقصودة. استهدف هذا البحث، دراسة المعاني الضمنية لانسجام الصوائت في سورة آل عمران مستخدماً المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يتمحور حول معطيات علم التجويد متناولاً المستوى الصوتيّ والدلاليّ في هذه السورة. لم تكن الآيات القرآنيّة خطاباً جامداً تنتهي دلالته بمجرد الكلام عن ظاهر المعنى وصراحتها بل يصل القارئ إلى معانٍ إضافية وإشاريّة تتبلور منها، جماليّة النصّ. ظهر من خلال هذه الدراسة أن هناك انسجاماً مقصوداً في إيقاع هذه السورة كما أن التكرار هو من العناصر الهامّة في زيادة هذا الانسجام الجميل للسورة بالإضافة إلى الدلالات الإيحائيّة لهذه الأصوات؛ وأنّ هذه الدلالات نابعة من انسجام الصوائت المعتمدة على صفتها وتركيب بعضها مع بعض؛ وأنّ الانسجام الفنيّ قد برز بين الصور المختلفة كالبلاغة بصورة واضحة.

الكلمات الدلالية: سورة آل عمران، الانسجام، الصوائت، الدلالة، التكرار.

١. المقدمة

إنّ الدراسات الدلالية القرآنية من الدراسات التي تحتلّ مكانة عالية في دراسات اللغة الأدبية لأنّ التجربة الأدبية في أساسها تجربة لغوية ورمزية، فالنصّ الأدبيّ هو الاستخدام الفنيّ للطاقت الحسية والعقلية والنفسيّة والصوتية للغة. والقرآن كذلك بناء لغويّ وإيحائيّ مميّز يستثمر طاقة اللغة. وتعدّ دراسة الأصوات من أكثر الدراسات اهتماماً واكتمالاً عند العرب القدماء رغم تأخر تأليف الكتب في هذا العلم وذلك بفضل علم التجويد الذي عنى بأصوات القرآن الكريم وقد ارتكزت الدراسات الصوتية على الصوائت من حيث مخارجها وصفاتها العامة والخاصة، دون الإشارة إلى مسألة الانسجام ودلالات تلك الأصوات.

لا شكّ أنّ الدراسة الدلالية لانسجام الصوائت تكون من أهمّ الدراسات الصوتية القرآنية لأنّ تحليلها يكشف عن درجة التأثير الأدبيّ للقرآن الكريم في الروابط والعلاقات بين كلماته وجماليته إثر المستوى الصوتيّ بالإضافة إلى ما فيها من كشف الانفعالات النفسية التي تكون عند القرآن الكريم؛ وكشف المعاني الإضافية والإشارية التي تتبلور منها أدبية النصّ القرآنيّ وإعجازيته الفنيّة.

إنّ الأسئلة التي نطرحها، هي: ما هي الصوائت التي تستطيع أن توضح انسجام النصّ القرآنيّ؟ كيف تؤثر الصوائت على دلالة الانسجام في الآيات الكريمة؟ هل تستمدّ الألفاظ المتميزة بجرسها الموسيقيّ من طبيعة الصوت في انسجام الآيات؟ هل تستخدم الآيات فونيماتٍ وحركات تناسب معانيها، وتنبع من داخلها، وتستطيع أن تقدّم قراءةً فنيةً مقصودة؟
أما أهداف البحث: فهي دراسة المعاني الضمنية لانسجام في سورة آل عمران كنصّ وكشف العلاقات الصوتية على أساس الصوائت بين النصّ ومعناه.

نرمي من وراء هذه الدراسة الموسومة بـ«دراسة المعاني الضمنية لانسجام الصوائت في سورة آل عمران» إلى تحقيق تطبيقيّ وفق منهجٍ وصفيّ تحليليّ في دراسة النصوص الأدبية، لينكشف لنا الغطاء كلياً في آخر دراستنا عن ماهية الانسجام، وخصائص اللغة الأدبية في البني الصوتية والدلالية.

أما بالنسبة إلى الدراسات المرتبطة بهذا الموضوع فهناك دراسات صوتية دلالية، منها: كتاب بعنوان المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية لمحمد محمد يونس علي، ٢٠٠٧م. ورسالة «الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجاً)» لنوال خلف، ٢٠٠٦م. ورسالة

«السياق اللغوي وأهميته في تحديد دلالة الكلمة في النص القرآني» لعارف عبدالكريم مطرود ومراد حميد عبدالله، د.ت. ورسالة «البنية الصوتية ودلالاتها في شعر عبد الناصر صالح» لإبراهيم مصطفى إبراهيم رجب، ٢٠٠٣ م. ويكون هناك بعض المحاولات على أساس نظرية هالدي؛ ولكن لا نكاد نحصل على دراسة في موضوع الانسجام الصوتي ودلالته في صوائت سورة «آل عمران» ولا على دراسة في صوائت السور الأخرى فنحن هنا اهتمامنا بدراستها، وبعد التعرف على الانسجام والصوائت ندرس هذه السورة وفقاً لمنهج الوصفي التحليلي في المستويات الصوتية والدلالية ونشير في نهاية البحث إلى أهم نتائج البحث.

٢. الانسجام والدلالة

تُمثّل ظاهرة الانسجام صورةً حسيةً للأدب، وتعبّر عن قوة الأديب في اختيار مفردات تسعى إلى التوصل والتأثير. تُمثّل ظاهرة الانسجام الصوتي بعضاً من كل؛ فهذه تتصف بالطابع الحسي، كما أنّ شدّة ارتباطها بالحواس البشرية تجعلها مثيرةً لهذه الحواس عند ورودها في القرآن الكريم، وتزيد في التأثير الوجداني في النفس، وهي سمة موجودة في كلّ اللغات. يقول السيوطي في تعريف الانسجام: «هو أن يكون الكلام -لخلوّه من الانعقاد- متحدراً كتحدّر الماء المنسجم. ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقّة. والقرآن كلّ كذلك» (السيوطي، د.ت: ٢٦٠). فهي ظاهرة لغوية جذورها موجودة في الموروث اللغوي العربي.

في العصر الحديث نجد دراسة جدية لهالدي في موضوع الانسجام والاتساق. وكان اهتمامه بجمال الشكل وإن اختلطت نظرتة في الانسجام الصوتي بشيء من الإجمال؛ ومصطلح «الانسجام» الذي قدّمه هالدي في كتابه *Cohesion in English* شاع بين الأدباء كميزة من الميزات الأساسية للنص الأدبي وأحد النماذج التحليلية في الدراسات الأدبية. ذلك لأنّ له طبيعةً نطقيةً وطبيعةً فيزيائيةً وطبيعةً سمعيةً في المستوى الصوتي «phonetic» وله جانب سياقي «contextual» داخل التركيب والنصوص، بحيث يقوم بوظيفة صوتية متلائمة مع المعنى وهو ظاهرة لغوية؛ وكلّ دراسة لغوية لا بدّ أن تتجه إلى المعنى فالمعنى هو الهدف المركزي. ولا شك أنّ للسياق دوراً هاماً في البحث في المستوى الصوتي — الدلالي إذ لا يصحّ الاعتماد على مجرد كلمة واحدة دون معرفة السياق. والانسجام الصوتي يعتبر نوعاً

من الدلالة الوظيفية ويُدرس من خلاله، الصوت والحرف والموقع والمقطع و...؛ ويساهم بأدائها في بيان المعنى العام ووضوحه داخل السياق حيث يدل كل عبارة منه دلالة طبيعية إلى حد ما، بمجرد سماع الأجراس الصوتية للألفاظ فيحصل معناها في الذهن بطريقة طبيعية ولكن هذه العلاقة الطبيعية تكون في حدود ضيقة لقلة عدد هذا النوع من الانسجام.

٣. انسجام الصوائت

تعرف الصوائت «vowels» بالحركات وهي الأصوات المجهورة التي يندفع فيها الهواء من الرئة إلى الفم خلال الحلق دون أن يمنعه عائق. وقد سماها الخليل بالأحرف الجوف وأطلق عليها اسم الحروف الهوائية وذلك لأنها تخرج من هواء الجوف دون أن تقع في مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة (الفراهيدي، د.ت: ٥٧/١).

تمتاز الصوائت بأنها مجهورة تتحرك لها الأوتار الصوتية عند النطق، أما الصوائت فمنها ما يحرك الأوتار الصوتية ومنها ما لا يحركها (بركة، د.ت: ٨٨)، ولذلك تتميز الصوائت بالوضوح التام عند النطق بحيث تسمع بكامل صفاتها بخلاف الصوائت التي تبدو خافتة وقد تثقل على السمع فهي (الصوائت) «أشدّ وضوحاً في السمع من غيرها من الأصوات الكلامية» (السعران، ١٩٩٢: ١٥٠).

إذا أضيف إلى الكلمة صوت أو حذف منها صوت فإن ذلك يؤدي إلى تغيير في معناها تبعاً لهذا التغيير الصوتي الذي يُطلق عليه مصطلح «vowel gradation» وهو تبديل الحركة وسط الكلمة بحركة أخرى لتغيير دلالة الكلمة (عوض حيدر، ٢٠٠٥: ٣٣).

والموسيقى القرآنية موضع اهتمام الدراسات الأدبية المعاصرة، بل هي موضع اهتمام في دراسة المعاني الإيجابية لعناصر الانسجام، حيث نجد حظاً وافراً في تكرار الصوائت شكلاً ومضموناً.

٤. الصوائت القصيرة

حظيت الصوائت القصيرة أو الطويلة بخصائص مختلفة عن الصوائت وذلك لكونها جوفية هوائية ولكونها تتميز عن الصوائت بخاصية الوضوح والجهر الأمر الذي أدى إلى شيوعها وترددها في كثير من الكلمات في اللغات المختلفة، اعتبر ابن جني «الحركات، أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث

وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو» (ابن جني، ١٩٨٥: ١٧/١). وذكر ابن جني أدلة كثيرة على ذلك كما يمكننا أن نسمي الفتحة بالألف الصغيرة والكسرة بالياء الصغيرة والضمة بالواو الصغيرة. ما أتى توزيع الحركات في مفردات القرآن عبثاً أو مصادفة فإن توزيع الحركات معبرٌ عن المعنى الضمّي مع إمتاعه الأذان بالنغم وهذه بعض الأمثال للصوائت القصيرة:

٤-١. الفتحة

فونيم الفتحة صائت أمامي قصير «حيث يصعد طرف اللسان نحو الحنك الأعلى أو تهبط إلى قاع الفم» (حسام الدين، ٢٠٠١: ١٢٩) يسمي فونيم الفتحة بالألف الصغيرة. يتمثل الصائت الواسع في صوت الفتحة حيث يصير معها الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى واسعاً ويظهر هذا الصائت «في الجملة أشدّ بروزاً من الصوائت الضيقة» (السعران، ١٩٩٢: ١٥١) التي يمثلها الصوتان الكسرة والضمة. ونجد أن كثرة الفتحة الخفيفة تطيب للسمع، وتلد في النطق، وتلك مسألة صوتية دقيقة تؤكد أن الانسجام الفني في القرآن الكريم يتكوّن من جزئيات متلاحمة مسهمة لإحداث المعاني الضمّية كقوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِه» (النساء: ٨٣). في وصف المنافقين، ووردت في القرآن كلمة «أَمَنَّةٌ» مرتين في قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا» (آل عمران: ١٥٤). وقوله تعالى: «إِذْ يُبْعَثُكُمْ نُعَاسَ أَمَنَةٍ مِنْهُ» (الأنفال: ١١). في غزوة بدر. يذكر عودة الله فرقين، الأوّل يتعلق بالمعنى والثاني يتعلق بالموسيقى:

«الأول ارتبطت بكلمة «نعاس» في المرتين اللتين فيهما في القرآن، ولم ترتبط كلمة «الأمن» بالنعاس ولا مرة واحدة من المرات الخمس التي وردت فيها في القرآن، كأن الأمانة حالة من المعنى أخفّ من حالة الأمن، وأقصر وقتاً، فهي تأتي في تأتي في ظرف خوف، وكأنتها الشمس تشرق في يوم ماطر، والثاني أن توالي الفتحات في «أمنة» بمنحها معنى التدرّج في تسرّب الأمن إلى النفس، وهذه الظلال لا يحسّ بها في كلمة «أمن» ساكنة الوسط، بل هي حال ساكنة مستمرة» (منيع القيسي، ١٩٩٦: ١٩٩).

فجاءت الفتحة متوالية في «أمنة» أربع مرّات، خفيفة الجرس وزادت ظلال الهدوء وخفض الأصوات؛ ومن جانب آخر حرف السين الهامس بعد حرف المدّ في الكلمة «النعاس» يضيء هدوء السكينة على هدوء الليل وسكونه إذ الصوت المهموس «هو الصوت الذي لا تنذبذ

الأوتار الصوتية حال النطق به» (بشر، ٢٠٠٠: ١٤٧) حيث يخرج الهواء دون أي اعتراض ومن دون أي تذبذب.

وفي خاتمة الآية التالية: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ» (آل عمران: ٩٨). جاءت الفتحة على سبعة أحرفٍ خفيفة الجرس «وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ» وزادت ظلال سهولة الأمور الإلهية لأنَّ الشِّفَاةَ ترتاح في حركة الفتح. في قوله تعالى: «... وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (آل عمران: ١٥٣). تمتعت خاتمة الآية بتكرار الفتحات ستّ مرات «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»؛ ومع الفتحة تنفرج الشِّفْتَانِ وتلفظ الكلمة سهلة لأنَّ حركة الفتحة ذو سمة الأمامية الناتجة عن تقدّم اللسان في مواجهة اللثة فتقوم بالإحالة إلى الخارج، خارج الذات وتدلّ على الآخرين.

وفي خاتمة الآية التالية زادت ظلال السهولة بسبب تكرار الفتحة ثلاث عشرة مرة حيث الجو كلّه يسرّ وراحة ونعمة: «وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» (آل عمران: ١٥٧). تردّدت الفتحة اثنتا عشرة مرة فيها وزادت دلالة تفرغ النعم للذين قُتِلُوا في سبيل الله. فمن شأن الفتحة أن تعكس باتساعها في النطق، سعة الرحمة وانبساطها لأنَّ المتلقي يجد في حركة الفتح، اتساعاً نطقياً؛ فهي أوسع الأصوات اللغوية مخرجاً (سيويه، ١٩٩١: ٤/٢٣٦).

إذا توالى حركات اللفظ المنطوق، تمكّن اللسان من النطق به وظهرت فصاحته بخلاف ما إذا تعقب كلّ حركة سكوناً فالحركات تنقطع بالسكنات، كتكرار الفتحة في لفظ «درجات» في الآية التالية: «هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ» (آل عمران: ١٦٣). إنّ تكرار الفتحة في لفظ «درجات» وفي الآية كلّها من البداية إلى الخاتمة، يجعل الآية في ذروة الجمال الأسلوبية والتصوير الفني.

٢-٤. الكسرة

تقوم حركة الكسرة كالياء، في سمة الأمامية الناتجة عن تقدّم اللسان في مواجهة اللثة بالإحالة إلى الخارج (ابراهيم، عبدالفتاح، د.ت: ١١٩)، خارج الذات. إنّها تدلّ على الآخرين وبناءً على ذلك فصول الكسرة صائت أمامي ضيق منفرج قصير حيث يبلغ اللسان معه في ارتفاعه نحو الحنك الأعلى إلى أقصى مداه فيصير معه الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى ضيقاً ويتميّز بشدّة انفراج الشفتين (أنظر: حسام الدين، ٢٠٠١: ١٢٩).

قد استخدم القرآن في بداية الآية التالية، المفردات المنسجمة عندما بثّ الحركة فيها وجسم معانيه ولا يتكشف هذا الانسجام لأيّ قارئ، فالأمر يتطلّب دقّة، وسلامة ذوق: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (آل عمران: ١٩). تكرر حركة الكسرة في بداية كلمات «إِنَّ، الدِّينَ، عِنْدَ، الْإِسْلَامِ» دون لفظ الجلالة، يوحي بنوع من الخضوع والتسليم أمام أمر الله تعالى. يقول العلايلي في توصيف فونيم الياء الذي تكون الكسرة نصفه كميّة: «الياء يدلّ على الانفعال المؤثّر في البواطن» (العلالي، ١٩٦٨: ٦٤). ويمكن أن يدلّ انغلاق الكسرة على المخاطرة وانغلاق الأفق أمامهم إذ ليسوا على يقين من النجاح.

ونجد في خاتمة الآية أنّ تكرر الكسرة مرّتين مع الياء وقلقلة الباء يشحن خاتمة الآية كبدائتها بطاقات النغم الصوتيّة بصورة تجعلها تنسجم مع المعنى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ». يجيء تكرر الكسرة مع تردّد الياء في خاتمة الآية: «... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا (مريم) زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَحَدَّ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (آل عمران: ٣٧). ليقدم الشقّ الآخر من صورتها إذ تقوم سمة الأماميّة الناتجة عن تقدّم اللسان في مواجهة اللثة بالإحالة إلى الخارج؛ إحالة الرزق من الله إلى جانب مريم^(س). وأمّا الانفراج الشديد للشفتين عند تشكيل الكسرة فإيحاء بأنّ الله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب ودون إحصاء كما يوحي هذا الانفراج بمجال الحركة الواسعة حيث سرعة الحركة والحيويّة البارزة الملائمتان لاستجابة الله لعبده.

وفي خاتمة الآية التالية: «...وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» (آل عمران: ٤١). صوت الكسرة تردّد خمس مرات بصحبة الياء وأثّر في المعنى الإيحائيّ إذ تقوم سمة الأماميّة بالإحالة إلى الخارج. يهدف حضور الكسرة وتكرارها بإيحاءها بقوة أمر الله بنبيّه لأنّ الكسرة صوتٌ حادّ كالياء وتضافر طول زمن النطق بالياء في كلمة «العشيّ» وحدّته مع أماميته، يوحي بتوجيه كلّ القوة صوب المخاطب، ومن أجل هذه المبالغة في وصف المخاطب تمّ استحضار صائت الكسرة وهو نظير الياء القصير (أبو سكين، د.ت: ٦٢) لأنّه يدلّ على ذلك لكن بدرجة أقلّ بروزاً. وتأتي الكسرة في خاتمة الآية لتكتمل المشهد الذي ترسمه هذه الآية إذ انكسار الشفة السفلى فيه يوحي بدهشة زكريا^(ع) بسبب عدم التكلّم مع الناس وتسيح الله تعالى؛ ويوحي بحزنه لما يصيبه من الناس خلال ثلاثة أيام كما أنّ انغلاق الكسرة؛ أي تكوّم اللسان تجاه اللثة مضيّقاً مجرى الهواء

يوحى بانغلاق الأفق والمجتمع أمامه واختصاص تكليمه لله تعالى؛ وكذلك تحمل هذه السمة، دلالة سعي زكريا^(ع) إلى التقدّم في إطاعة الله ودلالة انغلاق بقية الأعمال في وجهه.

٣-٤. الضمة

يشترك فونيم الضمة، فونيم الواو في بروز الشفتين نحو الأمام وتشكل مجرى الهواء في الفم وارتفاع اللسان وتكوّمه في مؤخر الفم ولا يخالف فونيم الضمة، الواو إلا من حيث زمن النطق به لأنّه صائت قصير (أبوسكين، د.ت: ٧٥). فهو صائت خلفي ضيق مضموم قصير «حيث تصعد مؤخرة اللسان نحو الحنك الأعلى أو تمببط إلى قاع الفم» (حسام الدين، ٢٠٠١: ١٢٩). وفقد فونيم الضمة بسبب قصره، الدلالة على طول علاقة الألفة والدفء وامتدادها وابتعاد عن الواو بفارق كبير واكتفى بالقدر الذي يشاركه معه في بقية الدلالات.

للقوف على الدلالة الضمنية في قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (آل عمران: ١٠٩). نجد في خاتمة الآية أنّ تكرار فونيم الضمة بتشكّل الفم عند نطقه بمياة بيضوية وعدم حدته، يؤدي دوراً هاماً من خلال خلفيته وانغلاقه (الموسوي، ١٩٨٣: ١٠١). وينسجم مع المعنى في جمع الأمور ورجوعها إلى الله تعالى ويرسخ ذلك، انغلاق الأمور ومصيرها إلى الله عزّ وجلّ فتزداد الآية بهذا التردد، جمالاً وحسناً لأنّ الضمة تأتي لتحمل بخلفيتها وانغلاقها واستدارة الشفتين فيها، ملامح الدلالة على الانضمام والانغلاق.

وفي الآية التالية نقف على الدلالة المستوحاة من انسجام الأصوات: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (آل عمران: ٦٢). لا شك أنّ تكرار الفتحة والضمة على الحرفين المستعنيين «القاف» و«الصاد»، يضيفي الاستعلاء ويخلق تشكلاً صوتياً قوياً كما يدلّ ذكر العزة والحكمة في خاتمة الآية، على هذا العلوّ لأنّ الضمة تحمل الدلالة على الصلابة والثبات كنتكّل اللسان وارتفاعه في الفم واستدارة الشفتين التي تشكّله بيضوياً.

وفي قوله عزّ وجلّ: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (آل عمران: ١٨٣). توالى الضمة ثلاث مرات في كلمة «رُسُل» وفي طرفيها الميم. والكلمة بقوتها بين «كم» و«من» هذه توحى إلى كثرة الرسل وإلى شدة الإنذار إذ الضمة تدلّ على الحزن والقوة (مفتاح، ١٩٨٩: ٧٤)؛ فهي نبرة غضب على الأمم البائدة التي لم تستجب للحقّ، فإنّ الرسل أقصى غاية لتوصيل الحقّ بوساطة الرسائل السماوية إن لم ينفذ

النظر في الكون للدلالة على خالقه، لذلك جاءت هذه الكلمة وحدها بهذه الضمات المتواليه كأنها صرخة في وجوه الكفرة من اهل الكتاب.

وفي خاتمة قوله تعالى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران: ٦٨). تكرار الضمة ثلاث مرات بصحبة الواو يسهم في بناء دلالة المشهد الحميم فالقرآن يتحدث خلال هذه الآية وخاتمها عن شخص قوي مستقل. يتأسس إسهام الواو هنا على تقلد الشفتين فيه نحو الأمام — الخارج — أكثر من أي صائت آخر «إذ تبلغ مسافة تقدمهما في أثناء نطقه ١ سنتيمتر» (إبراهيم، عبدالفتاح، د.ت: ١١٤). وهو يدل على الدفاء والحميمية من خلال ما يشوبه من قيمة تفخيمية؛ وهذا الدفاء والحميمية هو الرابط بين الله تعالى والمؤمنين. ومن جهة أخرى زمن نطق الواو الطويل الذي يصنّفه ضمن الصوائت الطويلة، يدل على استمرار هذه الحميمية والعطف والحنو من الله على المؤمنين.

وهناك وجه ثالث وهو ارتفاع اللسان وتجمعه في مؤخر الفم عند تشكيل الواو (أبوسكين، د.ت: ٧٥) وفيه دلالة على استقرار المؤمنين في ظلّ الله بجدوء وسكون. مما يؤكد هذا الهدوء ويرسخه أن خاتمة الآية جاءت بصورة الجملة الاسمية.

وفي قوله تعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (آل عمران: ١٠٤). تقوم الضمة — النظيرة القصيرة للواو — وتكرارها خمس مرات في خاتمة الآية، بحمل دلالات الواو وتوحي بوجود الألفة والانضمام والدفاء بين هذه الأمة الواحدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي تدل أيضاً على الألفة من خلال ما يشوبها من قيمة تفخيمية وهذا الدفاء والحميمية يوحى بعلاقة عميقة بينهم وبين الله. وفي ذلك، أيضاً دلالة على وحدتهم في دعوتهم. مما يؤكد هذه الوحدة ويرسخها أن خاتمة الآية جاءت بصورة الجملة الاسمية «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ومن جهة أخرى، زمن نطق الواو الطويل يدل على استمرار هذه الحميمية. وتقوم سمة الانتقالية المميزة للواو (أنيس، د.ت: ١٣٥) التي توجد أيضاً في الضمة، بالدلالة على الانتقال من وضع إلى آخر جديد، من المنكر إلى المعروف ثم إلى الفلاح.

أما الوجه الآخر فارتفاع اللسان وتجمعه في مؤخر الفم عند تشكيل الضمة والواو، يدل على ثبات الداعين إلى الخير واستقامتهم عليه فهو يتكوى اللسان عند تشكيله في مؤخر الفم حيث يبلغ اللسان معه في ارتفاعه نحو الحنك الأعلى إلى أقصى مداه، فيصير معه الفراغ بين

اللسان والحنك الأعلى ضيقاً ومُغلقاً فيوحي بذلك ويرسّخ ذلك، انغلاقه الدالّ على أن تلك الأمة يذلون أنفسهم على عمل الخير.

نجد في الآية التالية من بدايتها إلى خاتمتها، فاعليّة إيجائيّة تتحدّد بالإحساس الحركيّ المصاحب للنطق بالصوت؛ وكثيراً ما تكون هذه الفاعليّة غامضة في خلق النشاط الموسيقيّ أو تكوين المعنى: «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (آل عمران: ٨٤). فتكرار الضمة أربع مرّات بصحبة تكرار الواو مرّتين؛ يسهم في بناء دلالة المشهد الحميم فالقرآن يتحدّث خلال هذه الآية وخاتمتها عن أشخاص متحدّون؛ وإسهام الواو معه في تقدم الشفتين نحو الأمام، أكثر من أيّ صائت آخر؛ وهو يدلّ على الدفاء والحميميّة من خلال ما يشوبه من قيمة تفخيميّة وهذا الدفاء والحميميّة هو الرابط بين الله تعالى والمسلمون حقاً فيؤدّي دوراً هاماً في بناء مشهد على وجود تلاحم بينهم في تصديقهم الأنبياء كلّهم؛ إذ يكون الفم متشكّلاً عند النطق بهذا الفونيم بيضويّ لاستدارة الشفتين. ومن جهة أخرى، زمن نطق الواو الطويل يدلّ على استمرار هذه الحميميّة. وهناك وجه ثالث وهو ارتفاع اللسان وتجمّعه في مؤخر الفم عند تشكيل الواو (أبوسكين، د.ت: ٧٥)؛ وفي ذلك دلالة على دعوة النفس صاحبها للإسلام لجميع الأنبياء^(٤) واستقرار المسلمين بإيمانهم لجميع الأنبياء^(٥) في ظلّ الله في هدوء وسكون. ممّا يؤكّد هذا الهدوء ويرسّخه أن خاتمة الآية جاءت بصورة الجملة الاسميّة. رابعاً جاء فونيم الواو في بداية «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وهو كفونيم الضمّة في ميزاته، لتبدأ الإحالة إلى خارج الذات لشفويّته كما يقوم من خلال قوّة إسماعه العليا بالدلالة على ثقة النفس بما فعلت، وسعيها إلى إبلاغ أكبر من الناس ويظهر أنّه يرتبط بقوّة شخصيّات المسلمين وتأثيرهم في المحيط.

٥. الصوائت الطويلة

إنّ الصفات التي حظيت وتمتعت بها الصوائت من اتّساع وخفّة في النطق وطول في النفس ووضوح في الجهر، جعلت منها عنصراً هاماً في قوّة المعاني الضمنيّة وتوضيحها. وذلك لكونها جوقية هوائيّة، الأمر الذي أدّى إلى شيوعها في كثير من الكلمات في اللغات المختلفة (بركة، د.ت: ٨٨) ونجد فيها فاعليّة إيجائيّة في خلق النشاط الموسيقيّ أو تكوين المعنى.

فرّق ابن جنّي بين هذه الحروف الثلاثة من حيث كفيّة نطقها ومواقعها من الحلق واللسان والشففتين بما يتناسب مع تفريق علماء الأصوات المحدثين حيث يقول: «والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة، الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف إلا أنّ الصوت الذي يجري في الألف، مخالفٌ للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء، مخالفٌ للصوت الذي يجري في الألف والواو» (ابن جنّي، ١٩٨٥: ١٧/١).

نحاول هنا الإشارة إلى أهمية حروف اللين: الواو، الياء والألف في انسجام الآية، ولا شك أنّ الصوائت منثورة في كلمات القرآن الكريم بكثرة. وفي البنية الداخليّة للآية القرآنيّة نجد الكلمات الطّوال تتمتّع بكثرة المدود والسكّنات مما يجعلها مقاطع، لوقعها على الآذان، وملاءمتها للمقام.

٥-١. صائت الألف

هو صوت أماميّ متسع طويل «حيث يصعد طرف اللسان نحو الحنك الأعلى أو تهبط إلى قاع الفم» (حسام الدين، ٢٠٠١: ١٢٩). وهو من الصوائت التي اتسعت مخارجها بل هو أوسعها وألينها إلا أنّ الصوت الذي يجري في الألف، مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو. صائت الألف يدلّ من خلال انفتاحه وأماميته وطوله (أبوسكّين، د.ت: ٧٤) وقوة إسماعه الأعلى من كلّ الصوائت الأخرى (الحمداي، ١٩٨٢: ٨٢) على القوّة والوصول كوصول تصويت الألف إلى أبعد مدى ممكن بالنسبة لبقيّة الفونيمات لأنّ طول الحركة في اللغة العربيّة «عنصر ذو قيمة في بناء الدلالة» (بشر، ٢٠٠٠: ٢٤١).

لقد ساهم صائت الألف بشكل كبير في إيصال مكونات الآيات الداخليّة إلى المستمعين إضافة إلى أنّه زاد رغبة القراء في تفريغ أحاسيسهم وتجاربهم في قراءة الآيات الكرّمة. انظر إلى الآيتين التاليتين: «رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» (آل عمران: ٨). «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ» (آل عمران: ٩). ففي كلمات «رَبَّنَا، لا، قلوبنا، هَدَيْتَنَا، لنا، الوهَّاب، رَبَّنَا، جامع، الناس، لا، الله، لا، الميعاد» تجد أنّ المدود توحى بالاستمرار والتواصل، فيستغرق النطق الصوتيّ زمناً طويلاً نسبياً.

يواصل صائت الألف الطويل بأماميته وانفتاحه وعلوّ إسماعه، ملامح المشهد الدعائيّ من خلال دلالته على الإشادة العالية بالله تعالى كما يقوم الألف من خلال الانفتاح الشديد لجرى

الهواء عند نطقه، بالإيجاء بحالة الداعين وقد تنفسوا الصعداء وصاروا في مأمن الله. وتكثر السهولة في مدّ الألف، فليس هناك انقباض ولا انكماش، بل تدرّج من الصّعب إلى السهل، مما يمثّل سهولة الأمور بيد الخالق.

إنّ الألف يستمرّ في الدلالة على الانفتاح والتقدّم لانفتاح مجراه وأماميته (أبوسكين، د.ت: ٧٤) كانفتاحه في الآيات التالية: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذابَ النَّارِ» (آل عمران: ١٦). «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (آل عمران: ٥٣). «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (آل عمران: ١٤٧). ويستمرّ من خلال النسق الكميّ للألف، بروز وجه حياة سلمية بين المؤمنين؛ وإنّ هذا الترابط والدفء في العلاقات، الناتج عن عامل الزمن في المستوى الصوتي، يؤكده حضور كلمة «ربّنا».

يتفق الباحثون على أنّ الحزن والأسى هي الدلالات الأكثر التي يستحوّنها من الأصوات الصائتة وأنّ مجال الحزن هو المجال الذي تختصّ به تلك الأصوات (السعدي، د.ت: ٣٧). فنلاحظ أنّ صوت الألف الصائتة الأكثر اتساعاً؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مساحة الحزن والألم الواسعة التي شغلت حيزاً كبيراً من قلب الداعين والتي تتناسب مع سعة مخرج الألف أسهل الأصوات نطقاً وأقربها إلى الجوف حيث تخرج من الرئتين بمساعدة الزفير دون جهد كبير، وهذا ما يعلّل تنهّد المستغفرين في حالات الشدة. ولجوء المستغفر إلى صائت الألف عدة مرات يعبر عن آهاته الحزينة.

ففي هذه الآيات يندمج شعور المستمع بالدعاء والاستغفار مع شعوره بالحزن والألم ليعبر عن ذلك بآهاته الحزينة التي تنسجم معها الألف إذ «سورة آل عمران سارت على القافية الغالبة من بداية السورة حتى قرب نهايتها، فلمّا بدأ بدعاء من طائفة من المؤمنين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، تغيرت الفاصلة وتحوّلت إلى الألف والراء هكذا: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ...» (سيد قطب، ١٩٩٥: ١١٠).

«إنّ في تكرار عبارة «ربّنا» لما يلين القلب ويبعث فيه نداوة الإيمان وإنّ في الوقوف بالسكون على الراء المذلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم ويعوض في الأسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان» (شيخون، ١٩٧٨: ١١٤).

وانظر إلى الآيات الداعية إلى التأمل في الكون، وما فيه من أمور هادية تجد فيها النعمات الهادئة اللافتة الموجهة من غير قرع للأسماع، بل بتوجيه للأفهام: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (آل عمران: ١٩١). حتّى الآية ١٩٤ نلمس إيقاعاً نغمياً شجياً ينبع من صوت الألف اللين ينسجم مع حالة الشوق والانفتاح لوعده الله إياهم في اليوم الآخر. ونجد أنّ الحزن والأسى والخوف والشوق هي أهمّ الدلالات التي تحملها الصوائت في امتدادها؛ ولا شك أنّ صوتاً آخر غير تلك الأصوات الطويلة لا يستطيع حمل هذه الدلالات كما ينسجم الألف من خلال «الانفتاح الشديد لجرى الهواء عند نطقه» (سيبويه، ١٩٩١: ٤/٢٣٦) مع حالة القارئ وقد تنفّس الصعداء مع الأبرار.

ومن جهة أخرى توحى هذه المدود وتكرارها بالارتفاع والتحليق الذي يتحقّق بالتقرّب إلى الله وتشير إلى حركة الإنسان من الأسفل إلى الأعلى أي مما يعدّ دنيّاً أو عذاباً، إلى ما يعتبر علواً ورحمة وطمأنينة.

ويدلّ هذا الصائت على قوّة أصوات الداعين الله ومداهها إلى أبعد مدى ممكن مقارنة ببقية الفونيمات وكلّها إشاراتٌ على تمكّن الإنسان على الدعاء. والجدير بالذكر أنّ هذا التصوير الحسيّ من الحركة والسير بواسطة حركات المدود يجيش شعور المتلقي ويصوّر في ذهنه أنّه من الأبرار فيشدّ رحاله ويوفّر أسبابه للسير إلى الله.

وفي قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» (آل عمران: ٥) يمكن أن يتلقى الباحث من اختتام الفاصلة بالألف الممدودة، معنى إيحاءياً حيث يدلّ الروي على ارتفاع السماء وعظمتها. ولفظة السماء بحرف المدّ تشير إلى ارتفاع المكان؛ وفونيم الألف يدلّ على مساحة واسعة شغلت حيزاً كبيراً من قلب المتلقي ويكون أسهل الأصوات نطقاً وأقربها إلى الجوف حيث تخرج من الرئتين بمساعدة الزفير دون جهد كبير. ويمكننا القول إنّ كلمة «السماء» بواسطة المدّ المتصل، توحى بارتفاع السماء وعلوّ مكانه كما تشير إلى بعدٍ مكانيّ بين الأرض والسماء ارتفاعاً وانخفاضاً؛ واختيار لفظة السماء مشير إلى ارتفاعها ولكن مع هذا الارتفاع البعيد لا يخفى على الله شيءٌ في الأرض.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تقديم «الأرض» على «السماء» يؤكد الانسجام الموجود في الآية ويوحى بدلالة هامشية أخرى بأنّ من شأن الإنسان المختار على الأرض أن يقوم بإخفاء عمله

عن الناس ولكن لا يمكن أن يخفى على الله كفره وكفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب والانتقام، فبين في خاتمة الآية السابقة «والله عزيز ذو انتقام» أنه عزيز لا يخفى عليه شيء ظاهر على الحواس ولا غائب عنها كما يواصل الألف ملامح القوة بسمة إسماعه الأعلى التي تحيل هاهنا إلى قوة حضور الخالق في كل العالم من الأرض إلى السماء؛ والتي تحيل إلى علم هذا الخالق بكل شيء؛ ويوحى بالاستقامة كمسار الهواء في الألف حتى يملأ حوله كله. ومن العجيب أن المد المتصل جاء بصورة الروي مرة واحدة في سورة آل عمران وهي فاصلة هذه الآية. جاء في كلام الرماني حول الفواصل: «فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأتيا طريق إلى إلهام المعاني» (الرماني، ١٩٧٦: ١٠). كان القرآن الكريم قطعاً موسيقياً تمتاز بانسجام وترتيب للحركات، وبمدود كثيرة، وأكثر هذه المدود مد الألف، وهو سر الجمال.

٥-٢. صائت الواو

فونيم الواو صائت خلفي ضيق مضموم طويل؛ وقد جاء في تهذيب المقدمة اللغوية أن الواو «يدل على الانفعال المؤثر في الظواهر» (العلايلي، ١٩٦٨: ٦٤). في الآية التالية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (آل عمران: ١٠). نجد الواو ترد ثمان مرات، أربع منها في خاتمة الآية ونضيف أن انضمام الشفتين ثلاث مرات في هذه الخاتمة، مرة على الهمزة ومرة على الهاء ومرة على الدال، وهذا الانضمام يصور الوقود وتكوير الكافر وهو يتدحرج حتى يصل إلى القعر ويتجمع جسده كالكرة كما تتجمع الشفتان في لفظ هذه المفردة.

إن الضمة حركة ثقيلة، بخلاف الكسرة والفتحة، فهما حركتان خفيفتان، وهذه القضية الصوتية تشهد بما عمليّة نطق الضمة التي هي واو صغيرة، يكون للشفاه انكماش لدى نطقها وكأن الكافرين من ثقلهم يقعون في درك جهنم إذ «الواو نظيرة الياء في الثقل» (السيوطي، ١٩٩٨: ١٦٤/١). ومن المعلوم أن الواو مع صوت الياء، من الصوائت الضيقة الطويلة بخلاف الألف الذي أوسع وأخف منهما؛ ذلك بأن الحديث فيها كان عن العذاب وقسوته؛ ولما كان العذاب أكثر الأشياء التي تضيق له الصدور فلا عجب إذاً من توظيف هذه الأصوات الضيقة لتعبر عن مدى الضيق الذي ينتاب المعذبين.

ويكون موضوع الآية التالية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» (آل عمران: ٩٠). عدم قبول التوبة من الكافرين فكأنه سبب تكرار

صوت الواو الصائتة وكانَّ عدمَ قبول التوبة خُصَّ بتلك الأصوات الطويلة الضيقة واحتلَّ صوت الواو، المساحة الأكبر من الصوائت ستّ مرات؛ وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أنَّ الصوائت الضيقة جاءت للتعبير عن حالة الضيق التي تكتنف الكفار حين يتحدّث عن ازدياد كفرهم، وإذا كان هناك حضور لصائت الألف فإنَّه في حشو الآية لدلالة على أمر آخر.

٥-٣. صائت الياء

هو صوت أماميّ مُغلق طويل يتميَّز بشدة انفراج الشفتين و«يحمل سمة الانتقاليَّة كونه نصف صائت؛ أي يحمل شيئاً من الصوائت و شيئاً من الصوامت، فالياء هو المرحلة التي عندها يمكن أن ينتقل الفونيم الصامت إلى فونيم صائت» (أنيس، د.ت: ٤٨).

في الآية التالية: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» (آل عمران: ١٣). تردّد صوت الياء، اثني عشرة مرة بصحبة الكسرة التي تقوم سمة الأماميَّة الناتجة عن تقدّم اللسان في مواجهة اللثة بالإحالة إلى الخارج (ابراهيم، عبدالفتاح، د.ت: ١١٩)، خارج الذات للدلالة على الآخرين.

وتكمل الحلّة التي يتميَّز بها الياء والكسرة، تحديد طبيعة العلاقة بين الطرفين فهي علاقة الحدّة والقتال بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة. وأمّا الانفراج الشديد للشفتين عند تشكيل الياء والكسرة فايحاء بغياب الألفة والانضمام والدفع وإيحاء معرّض لكلّ الاحتمالات التي من بينها القتل على أيدي الكفار كما يوحي هذا الانفراج بمجال الحركة الواسع الذي يعبر عنه حيث سرعة الحركة والحيويّة البارزة الملائمتان لدفاع المؤمنين عن أنفسهم وهم يواجهون القتل. ولذلك في خاتمة الآية، نجد أنّ الكسرة تردّدت ستّ مرّات بصحبة الياء وبصحبة قلقله الباء في كلمة «الأبصار» التي يوجد في قلقلته ثلث الكسرة.

وفي قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (آل عمران: ١٢٩). نرى أنّ الياء تردّد خمس مرات وتردّدت الكسرة تسع مرات، ولا نجد في النطق بهما بعض المشقة والعنت. فأما الميزة الأساسية في الياء فهي سمة الانتقاليَّة، تتمثّل في هذه الآية، مشيئة الله تعالى وتمثّل ترابط مخارج مختلفة؛ فلذا يتسق صوت الياء مع سعة المشهد كما يوحي الانفراج فيه بمجال المشيئة الواسعة لله التي أشار إليها بذكر السماوات والارض وكما يوحي الانفراج الشديد بمجال مفتوح معرّض غفران الله أو تعذيبه.

تَمَّا يُوَكِّدُ هَذِهِ الْإِنْتِقَالِيَّةَ وَيُرْسِّخُهَا أَنَّ الْأَفْعَالَ الْوَارِدَةَ فِيهَا تَكُونُ مُضَارَعَةً وَتَدَلُّ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ وَالسَّرْعَةِ: «يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ».

وفي قوله تعالى: «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» (آل عمران: ٤٣).
أَوَّلُ مَا نَمَيِّزُ مِنْ أَنْسِجَامِ الصَّوْتِ هُوَ تَكَرُّرُ الْيَاءِ الْمُدِّيَّةِ وَالْكَسْرَةِ؛ وَهَذَا الْإِيقَاعُ يَسْرِي فِي الْآيَةِ عَلَى نَسْقٍ مَنْظَمٍ بَدَأَ مِنَ الْكَلِمَةِ الْأُولَى إِلَى الْأَخِيرَةِ «وَقَدْ دَلَّتِ الْمَلَاظَمَةُ عَلَى الْكَسْرَةِ وَمَا يَنْفَرِّغُ مِنْهَا كِيَاءَ الْمَدِّ تَكُونُ عُنْصُرًا أَسَاسِيًّا فِي كُلِّ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى صَغَرِ الْحَجْمِ؛ وَلَا تَقْتَصِرُ هَذِهِ الْمَلَاظَمَةُ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَلْ لَوَحِظْتُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى» (أنيس، ١٩٨٤: ٨٦).
فَلَعَلَّ تَكَرُّرَ الْيَاءِ وَالْكَسْرَةَ يُوْحِي بِدَلَالَاتٍ كَالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَالْقَنُوتِ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ أَنْيسٌ: «قَدْ تَرْتَبَطَ الْأَلْفَاظُ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَعْبِّرُ عَنِ الْغَضَبِ أَوْ النُّفُورِ أَوْ الْكُرْهِ كَمَا قَدْ تَرْتَبَطَ بِحَجْمِ الْأَشْيَاءِ أَوْ أَبْعَادِهَا وَلَوْحِظَ أَنَّ الْكَسْرَةَ وَمَا يَنْفَرِّغُ عَنْهَا مِنْ يَاءِ الْمَدِّ تَرْمِزُ فِي كَثِيرٍ مِنَ اللُّغَاتِ إِلَى صَغَرِ الْحَجْمِ أَوْ قَرَبِ الْمَسَافَةِ» (المصدر نفسه: ٢٤٥).

وصفة الانفراج الشديد تبرز دلالة السعة الشديدة خارج الذات من حيث المكان ويزور المشاركين في الأحداث كما إن تكرار صوت الياء يوحى بشخص مريم^(س) وحضورها مع العابدين وقنوتها وسجودها وركوعها مع الراكعين؛ ويوحى معنى الآية أيضاً أن العبادة تجري في أماكن واسعة ممتدة كالمساجد.

ومن جهة أخرى يقوم الياء بالدلالة على سعة الزمان فحيز الزمان أيضاً هنا فسيح كانفراج الشفتين وطول النطق في الياء «فهو — طول الحركة — عنصر ذو قيمة في بناء الدلالة» (بشر، ٢٠٠٠: ٢٤١).

وفي قوله تعالى: «... قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (آل عمران: ٧٣). احتل فونيم الياء في عبارة «إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» صدارة الحروف كثرة ليعكس من خلاله، وجود الفضل كله بيد الله، وجاءت سمة الأمامية الناتجة عن ارتفاع مقدم اللسان تجاه اللثة (إبراهيم، عبدالفتاح، د.ت: ١١٩) لتنبه إلى أن هذا الفضل نحو الخارج أي نحو مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ لِأَنَّ هَذِهِ الْذَاتِ بِمَقْدُورِهَا وَسَعْتِهَا، تَقْدِمُ أَيُّ فَضْلٍ نَحْوَ عِبَادِهِ كَفَضْلِ الْهَدَايَةِ وَهِيَ نَاتِجَةٌ عَنْ سَعْتِهِ وَعَلِمِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي خَاتَمَةِ الْآيَةِ بِعِبَارَةِ «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» وكما تبرز صفة الانفراج الشديد، دلالة السعة الشديدة خارج الذات من حيث المكان كما يوحى

الانفراج فيه بمجال المشيئة الواسعة لله التي أشار إليها بذكر «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». وتقوم الكسرة -النظيرة القصيرة للياء- بحمل الدلالات نفسها من خلال تكراره خمس مرات في العبارة المذكورة؛ وواضح أن تقدّم الياء على الكسرة في الترتيب يعود إلى طول الأوّل. وفي الآية التالية: «أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَكَهْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (آل عمران: ٨٣). تردّد فونيم الياء خمس مرّات وانتشر من بداية الآية إلى خاتمتها وبصحبة حضور الكسرة وتكراره خمس مرات أيضاً. ومن خلال هذا التكرار في بدايتها وخاتمتها يُلاحظ تماثل الانسجام بينهما بناء على سمة الانتقالية في الياء كما يلحظ تماثل الدلالة بين فعلَي «يبعون» و«يرجعون» وبين سمة الانتقالية البارزة في الياء والكسرة. ممّا يؤكد هذه الانتقالية ويرسخها أن الفعلين الواردين فيها تكون مضارعين ويدلّان على الحركة والحيوية والاستمرار: «يبعون» و«يرجعون».

وفي قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (آل عمران: ٢). تردّد صوت الياء أربع مرّات في خاتمتها؛ وهو يتميّز بقوة إسماع أعلى من كلّ الصوامت مما يوحي بالبروز والتأثير في من حوله لأنّه صوت أمامي مغلق طويل يتميّز بشدة انفراج الشفتين فيه مقارنة بصوت القاف المستعلي والانفجاريّ المجهور المطبق في كلمة «القيوم». يوحي انفراج الياء المشدّد بمجال الحركة الواسع حيث سرعة الحركة والحيوية البارزة الملائمتان لبيان أمر التوحيد ويساعد التشديد سمات الياء. «فإنّه (القيوم) أبلغ من قائم، وهكذا نجد أن جمال الصيغة في منظوره يقتصر على الكثرة، وأنّ الربط بين كثرة الحروف وكثرة المعنى مسألة قرّرها رجال اللغة». (أحمد بدوي، ٢٠٠٥: ٥٨) كما يشترك الجرس والظلّ في لفظ واحد مثل «يَوْمٌ يُدْعُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً» (الطور: ١٣) فلفظ «الدّع» يصوّر مدلوله بجرسه وظلّه جميعاً. وممّا يلاحظ هنا أنّ «الدّع» هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إراديّ فيه عين ساكنة هكذا: «أع» وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس «الدّع» (سيدقطب، ١٩٩٥: ٩٥).

وفي نهاية المطاف نؤكد أنّ الجملات والمفردات القرآنية تجاوزت حدودها المعجمية، وقد تجاوزت أحياناً إيجاءها المعهودة، واعتمدت التأثير الحسيّ، وحافظت على تلازم الشكل والمضمون، وهي قد أنبأت باسم الانسجام في عصرنا.

٦. النتيجة

أولاً: لقد توصلت الدراسة إلى أن للصوائت (المدود والحركات) دلالة خاصة في الآيات حيث استخدمت تلك الأصوات للتعبير عن الموضوعات المختلفة وقد أسهمت خواص تلك الأصوات بآساع مخارجها في التعبير عنه.

ثانياً: تتدخل المدود والحركات في طول المفردات خاصة في مفردات الآيات وعباراتها إذ تقسمها إلى مقاطع صغيرة سهلة في التطق والسّمع وتسبب انسجاماً فنياً دلاليّاً.

ثالثاً: لا تقتصر أهمية الصوائت على عددها فقط، بل في نوعية هذه الصوائت وصفاتها وأثرها الإيجابي في المعنى.

رابعاً: لإعادة الصوائت وانسجامها في سورة آل عمران أهمية هي أعلقُ بالنظم وملاءمة الموقف فتقدم قراءة فنية مقصودة وتنقل الأفكار والمعاني بصورة حسية فُتثبتها في ذهن المتلقي.

المصادر

القرآن الكريم

- ابراهيم، عبدالفتاح، مدخل في الصوتيات، تونس، دارالجنوب، د.ت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندأوي، دمشق، دارالقلم، ١٩٨٥.
- أبوسكين، عبدالحميد محمد، دراسات في التجويد والأصوات اللغوية، القاهرة، الأمانة، د.ت.
- احمد بدوي، احمد، من بلاغة القرآن، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ٢٠٠٥.
- أنيس، ابراهيم، الأصوات اللغوية، القاهرة، مكتبة النهضة، د.ت.
- _____ ، دلالة الألفاظ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤.
- بركه، بسام، علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، بيروت، مركز الإخاء القومي، د.ت.
- بشر، كمال، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٠.
- الحمداي، موفق، اللغة وعلم النفس، العراق، منشورات جامعة الموصل، ١٩٨٢.
- حسام الدين، كريم زكي، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١.
- الرماني، أبو الحسن علي، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مصر، دارالمعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦.
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، بيروت، دارالشروق، ١٩٩٥.
- السعدي، مصطفى، البنات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، الإسكندرية، منشأة المعارف، د.ت.
- السعران، محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، مصر، دارالفكر العربي، ١٩٩٢.

- السيد شيخون، محمود، الإعجاز في نظم القرآن، القاهرة، مكتبة الأزهرية، ١٩٧٨.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دارالجيل، ١٩٩١.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دارالتراث، الطبعة الثالثة، د.ت.
- _____، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٩٩٨.
- العلايلي، أسعد علي، تمهيد المقدمة اللغوية، لبنان، دارالنعمان، ١٩٦٨.
- عوض حيدر، فريد، علم الدلالة، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٥.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، دارالحرمين للطباعة، دارالرشيد، د.ت.
- مفتاح، محمد، في سيمياء الشعر القاسم، الدار البيضاء، دارالثقافة، ١٩٨٩.
- منيع القيسي، عودة الله، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، عمان، دارالبشير، ١٩٩٦.
- الموسوي، مهدي، علم الأصوات اللغوية، ليبيا، منشورات جامعة السابع من أبريل، ١٩٨٣.